

تفسير البحر المحيط

@ 20 @ يصلح لحقيقته ، كثير منه مساءلة الشعراء الديار والأطلال ، ومنه : سيد الأرض من شق نهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

فالسؤال هنا مجاز عن النظر في أديانهم : هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ؟ والذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات ، ف قيل له : اسأل أيها الناظر أتباع الرسل ، أ جاءت رسلكم بعبادة غير الله ؟ فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ، ولا يمكن أن يأتوا به . وأبعد من ذهب إلى أن المعنى : وأسألني ، وأسألنا عن من أرسلنا ، وعلق وأسأل ، فارتفع من ، وهو اسم استفهام على الابتداء ، وأرسلنا خبره في موضع نصب بأسأل بعد إسقاط الخافض ، كان سؤاله : من أرسلت يا رب قبلي من رسلك ؟ أ جعلت في رسالته آلهة تعبد ؟ ثم ساق السؤال فحكى المعنى ، فرد الخطاب إلى محمد في قوله : { مِّن قَبْلِكَ } . { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَآئِهِ فَتَالَىٰ لَّوْكَانَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّآ جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَآ هُمْ مِنْهَا يَصْتَكِبُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعِيُّ لَنَنَّا رَبُّكَ إِيمَانًا عَهِدَ عِنْدَكَ إِذْ نَزَّآ لَمْهُتَدُونَ * فَلَمَّآ كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَآ هُمْ يَنْكُتُونَ * وَزَادَىٰ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَآذِهِ الْوَهَّارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَآذِهِ الْآذَىٰ هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ * فَلَاوَلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِذْ نَزَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّآ اسْفُوزَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ } .

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين : أحدهما : أنه لما تقدم طعن قريش على الرسول ، واختيارهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أي في الجاه والمال ؛ وذكر أن مثل ذلك سبقهم إليه فرعون في قوله : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } ؟ إلى آخر الآية ، أتبعه بالملك والمال ، فرعون قدوتهم في ذلك ، ومع ذلك ، فصار فرعون مقهوراً مع موسى منتقماً منه ، فكذلك قريش . والوجه الثاني : أنه لما قال : { وَاسْئَلْ مَنْ } منتقماً منه ، فكذلك قريش . والوجه الثاني : أنه لما قال : { وَاسْئَلْ مَنْ } منتقماً منه ، فكذلك قريش . والوجه الثاني : أنه لما قال : { وَاسْئَلْ مَنْ } منتقماً منه ، فكذلك قريش .

أَرْسَلْنَا { الآية ، ذكر وقته موسى وعيسى ، وهما أكبر إتباعاً ممن سبقهم من الأنبياء ،
وكل جاء بالدعاء إلى الله وإفراده بالعبادة ، فلم يكن فيما جاء أبداً إباحة اتخاذ آلهة
من دون الله ، كما اتخذت قريش ، فناسب ذكر قصتهما للآية التي قبلها . وآيات موسى هي
المعجزات التي أتى بها . وخص الملائكة بالذكر ، وهم الأشراف لأن غيرهم من الناس تبع . .
{ فَلَمَّ سَاءَ جَاءَهُمْ بِنُذَائِنَا } ، قبله كلام محذوف تقديره : فطالبوه بما يدل على
صحة دعواه الرسالة من الله . { فَلَمَّ سَاءَ جَاءَهُمْ بِنُذَائِنَا } ، وهي انقلاب العصا
ثعباناً وعودها عصاً ، وإخراج اليد البيضاء نيرة ، وعودها إلى لونها الأول ، { إِذْ
هُمْ مِنْهَا يَصْخَرُونَ } ، أي فاجأهم الضحك بحيث لم يفكروا ولم يتأملوا ، بل بنفس ما
رأوا ذلك ضحكوا سخرية واستهزاء ، كما كانت قريش تضحك . قال الزمخشري : فإن قلت : كيف
جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة ؟ قلت : لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في
محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم . انتهى . ولا نعلم نحوياً ذهب
إلى ما ذهب إليه هذا الرجل ، من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ ،
بل المذاهب فيها ثلاثة : مذهب أنها حرف ، فلا تحتاج إلى عامل ، ومذهب أنها ظرف مكان ،
فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملاً فيها نحو : خرجت فإذا زيد قائم ،
فقائم ناصب لإذا ، كأن التقدير : خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم ؛ ومذهب أنها
ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً ، كأنه قال : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم ،
وإن لم يذكر بعد الاسم خبر ، أو ذكر اسم منصوب على الحال ، كانت إذا خبراً للمبتدأ .
فإن كان المبتدأ جئة ، وقلنا إذا ظرف